صور التجديد

في الاسكندرية

أمثلة عليا لبعث حضارة مدينة قديمة على الطراز الاول

لفؤاد شكري

من الطبيعي ان يكون امام الهيئة البلدية برنامج مفعم بمواد التجديد والتعمير والتجميل لمدينة عريقة في الحضارة التاريخية مثل الاسكندرية التي شهدت عظمة الرومان وجلال الفراعنة ، في شباب الدنيا وصبا العالم ، والصفحات الاولى من مجد الانسانية . وان يكون ذلك الثوب الاغريقي الملقى على ساحل البحر الابيض كما وصفها « إسطرابون » موضوع اهتمام جميع اولئك الذين يعلمون ان المدن لا تعيش في الشرق الا مع العناية الكبيرة بتهذيب الاشياء والناس

وقد كانت الاسكندرية لعهد قريب لا تكاد تملك المركز اللائق بها بين حواضر الشرق ، كانت المدينة التاريخية التي تحترم اطلالها للذكريات الخالدة التي ترجع الى عهد تلك النهضة العلمية التي قام بها فلاسفة الاغريق ولا تزال آثار ذلك العهد باقية الى اليوم . اما حضارة الاسكندرية التي ينبغي ان تبعث لخير الاجيال القادمة فقد كانت في ذلك العهد القديم مزيجاً من التهذيب والعمران وكانت حضارة تمتاز بكثرة وسائل اللهو والسرور ، ونعتقد ان القائمين بتحقيق برنامج التجديد المستحدث في الاسكندرية لم تغب عنهم هذه الظاهرة في تاريخ الاسكندرية . ولعلهم قد ادخروا في ذلك البرنامج امثلة جليلة يمكن ان يتحقق بها بعث تلك الحضارة القديمة

***

في ذلك العصر الذي ساوت فيه الاسكندرية مقام عاصمة العواصم في التاريخ القديم وصف احد الفلاسفة المثل الاعلى لمستقبل مدينة عظيمة جمعت كل عناصر المدنية بالمنارة التي ترسل اضواءها الى مسافات بعيدة وترشد اللاجئين الى الثغور . وتحت ذلك الجو الصافي الذي يحبو على امواج البحر الابيض وأصائل الشرق الحارة قدّر لهذه المدينة التاريخية ان تبعث بعثاً جديداً على طراز مستحدث لعله اجمل وأروع طراز عرف في تعمير المدن

أما امثلة ذلك العمران الذي تحقق بمجهود البلدية في اوقات كان لا بدّ فيها من الجهاد وبذل

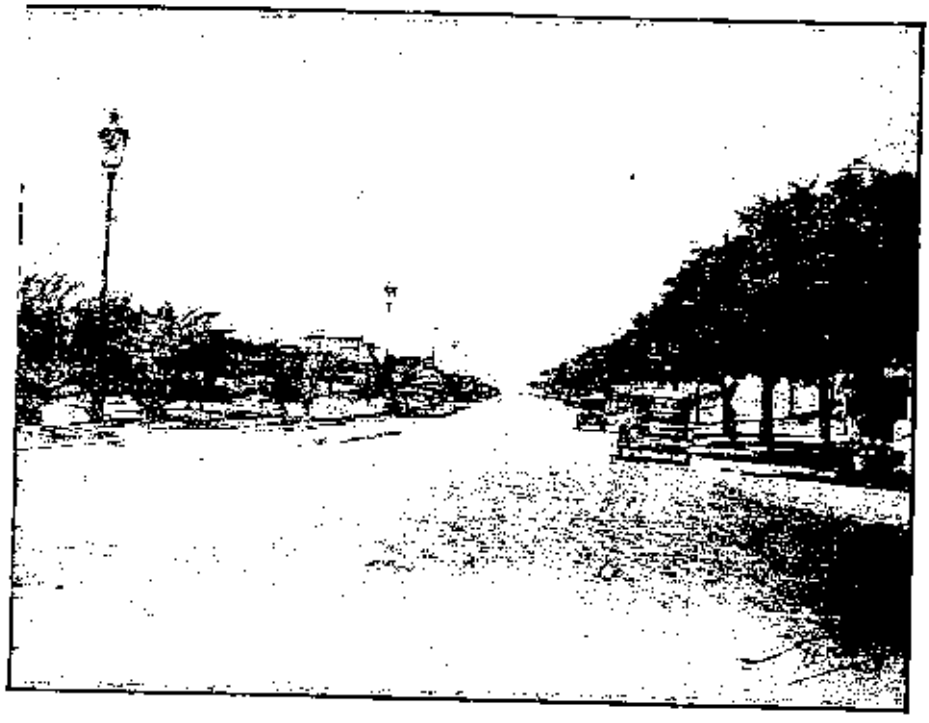

منظر من شارع أبي قير

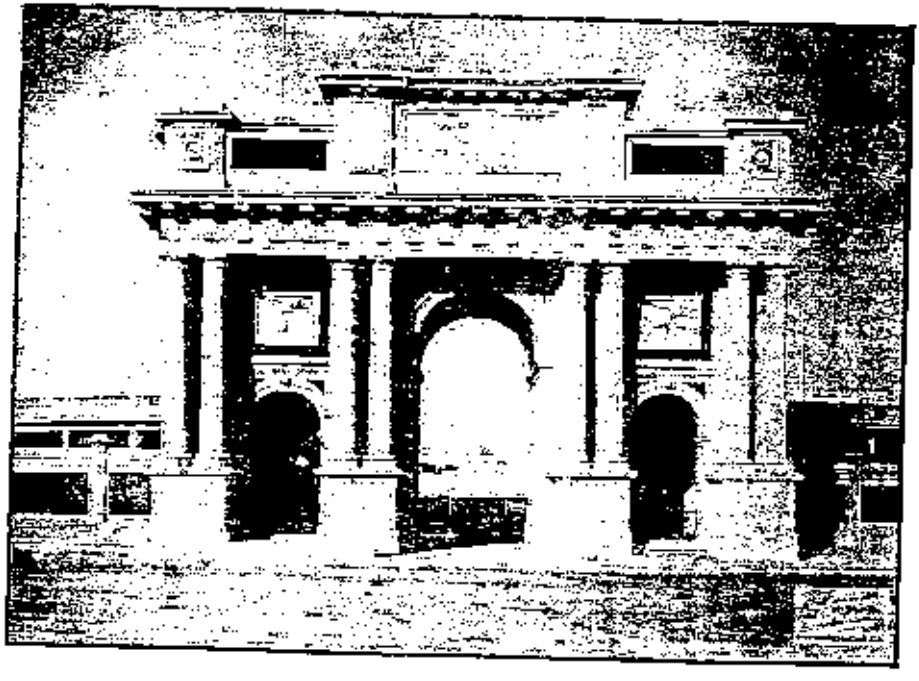

الباب الكبير لميدان الألعاب الرياضية التابع للمدينة

الهمم في سبيل القضاء على القديم وانشاء صور جديدة للعمران وخطط مستحدثة بعضها على طراز الخطط القديمة ، ونظم من التجديد ، وأفانين من التجميل ، وأساليب من بعث حضارة جليلة ذات أثر خالد في التاريخ ، فانها تتمثل في صور شتى بعضها تحقق لخير الذريات الحاضرة والمستقبلة وهي تلك الامثلة التي سنعددها واحدة فواحدة ، ونحن اذا ذكرنا هذه الجهود التي بذلتها البلدية لتحقيق تلك الامثلة العليا فلا نستطيع ان ننسى مع ذلك مساعي الهيآت التي تشارك البلدية في سبيلها العظيم لبعث هذه المدينة التاريخية . وسيظل ازدهار هذه المدينة آية في تاريخ العصر الحديث يدين بها الاخلاف زمناً طويلاً تخليداً لذكرى الرجال الذين اشتركوا في تحقيق ذلك التجديد وعملوا على انشاء ذلك البعث الكبير لحضارة لا نظير لها في التاريخ

***

وأول ما نذكر من امثلة ذلك التجديد الذي عني المجلس البلدي بانشائه على احدث طراز تلك الطريق التي شقها على الساحل فوهبها تلك الصورة القديمة التي كانت اجل مظاهر الابهة والعظمة في ذلك العصر التاريخي ، وكان الاهالي من الاعيان والطبقة الوسطى يتروّضون على الساحل كما يتروّضون اليوم ولا يكاد ينقص المعاصرين غير بائعات الزهر اللواتي كنّ في ذلك العهد القديم من صور التظرف والتأنق وغير تلكم الوامرات والراقصات اللواتي كنّ يلتشرنَ بين المتروّضين والمتروّضات على الساحل . اذن في تنظيم هذا الشارع الذي اطلق عليه اسم طريق الكورنيش صورة جليلة من صور البعث لحضارة الاسكندرية واستحداث حياة اولئك البطارقة العظماء الذين حاصروا الفلاسفة وكبار العلماء في مدرسة الاسكندرية وكانت ميزة عصرهم انهُ كان مزيجاً من التهذيب واللهو بل الانغماس في اللهو . وقتئذ كان الذهب يجري على جانبي المدينة القديمة كما تجري الامواه

ومثل آخر من أجلّ صور ذلك النهوض العظيم باحياء مدينة منذورة شارع ابي قير وقد اشبه مع شارع الكورنيش جناحي الطائر يحنو على المدينة بخوافيه وقوادمه ، او الوادي الذي يضم صورة فذة من صور العمران . وكذلك اريد ان يكون للاسكندرية الطريقان القديمان ، طريق العربات الذي يدعى اليوم شارع ابي قير ولا تكاد تنقطع منهُ السيارات والعربات كأنما قدّر له منذ تخطيطه ان يكون طريق حركة وضوضاء ، وقد احتفته الاشجار الباسقة المخضلة حتى لا تفارقه الاضواء والظلال مع تلك النسائم المنعشة العطرة التي يستنشقها المارة بلا انقطاع . وطريق التروّض القديم وهو شارع الكورنيش الذي لا تكاد تفارقه ايضاً جماعات المتروّضين ولا تكاد تغيب عنه تلك النسوس الحارة التي يلطفها هواء البحر ويهبها صوت الامواج وتكسرها على الشاطىء نغمة رقيقة لعلها أعذب لحن يتطلب ان يستمعهُ طاير سبيل

ولعلّ اجل ظاهرات تلك الطريق الاخيرة التي تعانق البحر بقوة كأنها تخشى ان يتدفق وهي

بالفعل تحول دون تدفقه ، ان الناظر الى آخرها اثناء الليل يحسب ان البحر طريق معبدة تجتازها العربات اذ ان اختفاء الحاجز الحجري يبيح ذلك التصور الكاذب ، وكذلك شارع ابي قير الذي تشبه حركة السيارات فيه عند الهزيع الاخير من الليل غواصاً يقلد بيديه ماسات وأحجاراً كريمة متألقة اذ لا يكاد الانسان يفتح فيه غير مصابيح تلك العربات

***

ومن أجلّ الامثلة ايضاً التي يراد بها حماية عمران مدينة كأن الطبيعة نفسها تغار من ازدهارها وروائها حاجز الامواج الذي يظهر الفارق البعيد بين العصرين في طمأنينة حضارة المدينة ورقيها وسلامة الاهلين من انطلاق البحر قد يسلب بعض ذلك الرواء والرونق وينال منهُ ، وقديماً لم يكن يخشى على عمران المدينة من امواج البحر رغم ان امثلة ذلك العمران القديم كانت مجاورة للساحل. ولعلنا نذكر ما رواه المقريزي حين ذكر الاسكندرية عن تلك الآثار الرخامية التي طواها صدر البحر حيناً من الزمن ولعل تلك الآثار هي نفسها التي اشير اخيراً الى استكشافها في شاطىء ابي قير وقيل انها تشمل مقبرة الاسكندر

أما حاجز الامواج الذي تهتم البلدية بامتداده حتى يتحقق به الغرض فيما يختص بالحيلولة بين البحر وعمران المدينة فانهُ مثل معتبر يتعلق بالسلامة وحدها الآن ولما يتم بالنظر الى تكاليفه والى المناسبات الدقيقة التي تحول عادة دون تحقيق المشروعات الواسعة فان ذلك التريث في مد الحاجز يرجع الى تفكير البلدية على ما نعلم في اقامة منشآت مستحدثة على صدر البحر تجاور ذلك الحاجز او يكون الحاجز جزءاً منها . ولقد كانت الاسكندرية القديمة مثلاً قريباً لذلك الحاجز . كانوا يخترقون به صدر البحر زرافات ، اذن فهو ايضاً صورة جليلة من صور العمث لتلك الحضارة الخالدة في التاريخ القديم

ولو كانت الاسكندرية مثل تلك الثغور اليونانية التي ينبت فيها الرخام والمرمر كما تنبت الاشجار والازهار لكان من السهل تحقيق أو لا بدَّ منه لاستكمال مدنية عاصمة من أجل ثغور البحر الابيض المتوسط وهو الملعب او كما يسمونه «ستاديوم» . وكان القدماء يعنون بهذه الكلمة المسرح ايضاً او مكان اجتماع الشعب والخطابة . وقد كانت عناية البلدية ببناء ذلك الملعب لا تقل عن عنايتها بتحقيق سائر وجوه التجديد والتحميل في المدينة وان لم يفاه ذلك الملعب الذي أقامه «افيروف» في أثينا على رسم الملعب الاغريقي القديم من المرمر تخليداً لاجلّ اثر في تاريخ بلاده . على ان انشاء الملعب قد سدَّ حاجة كبيرة من حاجات العصر ومستلزماته ، فالملعب البلدي ولو تصورناه بصورته الحاضرة لا يخرج عن كونه اسلوباً ظريفاً من اساليب بعث الحضارة القديمة في الاسكندرية

اما المنشآت الصحية المتعددة التي اهتمت البلدية اهتماماً جدياً بتحقيقها للعناية بصحة الاهلين

وسلامة الذريات في المدينة التاريخية فانها من أجلّ ما تستحدثه البلديات في مدينة ذات موارد محدودة مثل الاسكندرية فان المنشآت الصحية تحتاج عادة عدا الجهود التي تبذل في سبيل تحقيقها الى نفقات مستمرة تناسب دوائر الاحتياج اليها . من هذه المنشآت الواسعة مساكن العمال . واذا قلنا مساكن العمال لايكون هذا القول بالطبع مقصوراً على حجرات خاصة بالعمال بل نعتقد ان معناه العناية بصحة العمال وذرياتهم وحياتهم المنزلية واقتصادهم وبالاختصار بمستقبلهم . ولقد كان تحقيق هذا المشروع من أمثلة العمل بالمبادىء العصرية التي لم تغب فوائدها عن رجال البلدية . وقد اصبحت هذه المساكن اليوم تضم المئات من العمال في الاسكندرية . ونقول ان النظر الى هذا المشروع من بعض وجوهه المحلية البحتة يبدي لنا الظاهرة نفسها التي يتمثل فيها بعث حضارة المدينة القديمة فقد كان للعمال في الاسكندرية التاريخية حي خاص لا يتجاوزونه يدعى باسمهم كما كان للاعيان حي آخر منسوب اليهم

ثم تلك الحلقات المنتظمة الصحية كمستشفى الحميات ومغاسل الفقراء والعيادات الطبية المتعددة ومستشفى الولادة ومطعم الفقراء وما الى ذلك مما يشمل الاختصاصات الواسعة المتعلقة بالبلدية في شأن العناية بصحة الاهلين واطفالهم . اما مغاسل الفقراء فقد كانت الى الآن مرآة صادقة لارادة البلدية النبيلة في تحسين حالة الفقراء نوعاً ما وهو مجهود يستحق دائماً الاعتراف بالجميل للبلدية من تلك الطبقات الفقيرة التي تحتاج الى عناية مستمرة بصحتها ونظافتها . ثم مستشفى الولادة الذي يعد نظاماً مستحدثاً في دائرة الاهتمام بالصحة العامة وهو يعطي صورة صادقة من اهتمام البلديات في العالم المتمدين بالمواليد والامومة ومستقبل الاطفال . وفي اعتقادنا ان هذا المشروع الجليل يكفل الحاجة القصوى الى مثل هذه العناية بصحة الطفل . اما العيادات الطبية المنتشرة في المدينة فكلها منسوب الى البلدية وعنايتها القصوى بصحة السكان فانها مثل صادق لجزء من المهام الواسعة الملقاة على عاتق البلدية فيما يختص بصحة المدينة والعناية بالاهلين وتخفيف اعباء الحياة وتيسير وسائل المعالجة والوقاية ، وهي من أجلّ ما ينبغي ان يسهل على السكان في مدينة متحضرة ذات حركة عملية مستمرة

***

وما يقال عن مغاسل الفقراء وفوائدها وأثرها في الصحة العامة يقال ايضاً عن مطعم الفقراء الذي لا نستطيع ان نعده مجرد صورة من صور الاحسان ومؤاساة الفقراء بل نعده وسيلة عملية تعين تلك الطبقة على العمل والاعتماد على النفس . ولعلّ عناية البلدية الموجهة الى هذا الغرض من نوع العناية بالصحة والوقاية أكثر منها مساعدة الفقراء . وكذلك يمكن ان يتألف من مجموع هذه التنظيمات المستحدثة طراز بديع من بعث حضارة تاريخية ذات أثر خالد وان هذه المنشآت اذا عرضناها جملة كوّنت اجمل صورة من صور العمران

والظاهر ان البلدية بمقدار ما عنيت بالمشروعات الجدية المتعلقة بالصحة والامومة والاطفال ومساعدة الفقراء ارادت ان يكون للمدينة العصرية مظهرها الخاص البارز الذي يذكر بالعظمة الماضية ويكون اشبه بمرآة صادقة تبدي ما احتوت عليه من ضروب العمران وصور التجديد والتجميل والاماكن المتنزهات التي تظهرها بعض الاماكن العامة فعنيت عناية ذات شأن كبير في دائرة تجميل المدينة واستحداثها وجعلت هذه العناية وقفاً على ميدان المحطة الجديدة الذي تعمل في تنسيق الحدائق المنشأة لمامه والتي تستقبل زوار المدينة وتودّع الراحلين عنها

ولا يمكن ان يستجلي المرء صورة تلك الحدائق والواجهة الضخمة للمحطة الجديدة سوى ان ثمة فكرة عليا للبعث والتجديد. والعمران تحرك همم رجال البلدية . اولئك الذين يعوّل على جهودهم في بعث حضارة هذه المدينة ، والى هذا الميدان العظيم يمكن ان نضيف في نسق التوسع والتجميل ما يحكيه او يضاهيه من الميادين المستحدثة وبخاصة ذلك الميدان الذي يحيط بحي العمال بالقباري وتلك الحدائق المتعددة التي تتخلل الاحياء الوطنية لتغذيها بالهواء والضوء . هذا الى الوسائل المتعلقة بالصحة اكثر من تعلقها بمجرد التجميل وتلك المشروعات القيمة في دائرة تحسين صورة المدينة مثل توسيع حديقة النزهة ومضاعفة المساحي المبذولة في تنسيق حديقة الطونيادس . كذلك نلحظ ان البلدية قد شملت اهتمامها كل وجوه التنظيم والتجديد في المدينة وان موجة هذا التجديد قد فاضت حتى غمرت المدينة من اقصاها الى اقصاها وانها تشمل التأنق والتظرف في وجوه ذلك التجديد والاستحداث قدر ما تشمل التوسيع والانشاء وشق الطرقات الطويلة. وان البلدية قد آلت على نفسها ان تخرج من مجموعة هذه المشروعات امثلة عليا تؤلف في جملتها صورة للمدينة تحيي صورتها التي طواها التاريخ

على ان البرنامج الذي يشمل مجموعة تلك المنشآت الجديدة للبلدية لا يزال يشتمل على اشياء اخرى في مثل مكانة المنشآت التي تحققت . من ذلك انشاء متحف جديد ومكتبة جديدة على طراز مستحدث كامل يمكن ان يعيد ذكرى تلك المكتبة الكبيرة التي تعد من مفاخر تاريخ الاسكندرية القديم وقد سبق لنا ان تكلمنا عن هذا المشروع واشرنا الى تقاليد الاسكندرية القديمة فيما يتعلق باقتناء الكتب وكيف كان البطالسة يبذلون الاموال الطائلة في هذا السبيل

وتنوي البلدية أيضاً ان يستكمل في برنامج تلك المنشآت مواضع احياء الحضارة القديمة في تاريخ الاسكندرية وقد تقرر انشاء مسرح بلدي واسع على احدث طراز ولعل البلدية تنشيء الى جانب ذلك المسرح ايضاً معهداً اموسيقى مثلاً ما دام الاهتمام بتشجيع الفنون الجميلة من مهامها ونحن نلحظ ذلك في تبرعاتها لاصحاب المسارح ودور التهذيب العلمي والفني

ونذكر الى جانب ذلك الغرض الاسمى الذي تنظر اليه البلدية في توسيع بعض دوائر العمران في المدينة وتخطيط شوارع جديدة تزيد في رونق المدينة وازدهارها وبهائها . تذكر على سبيل

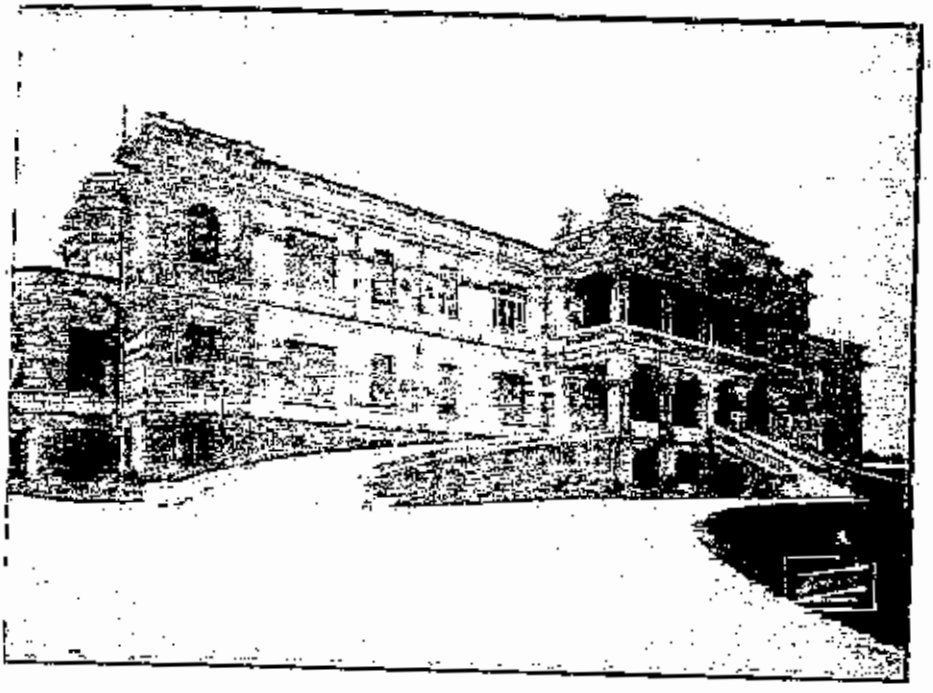

مستشفى الرمد

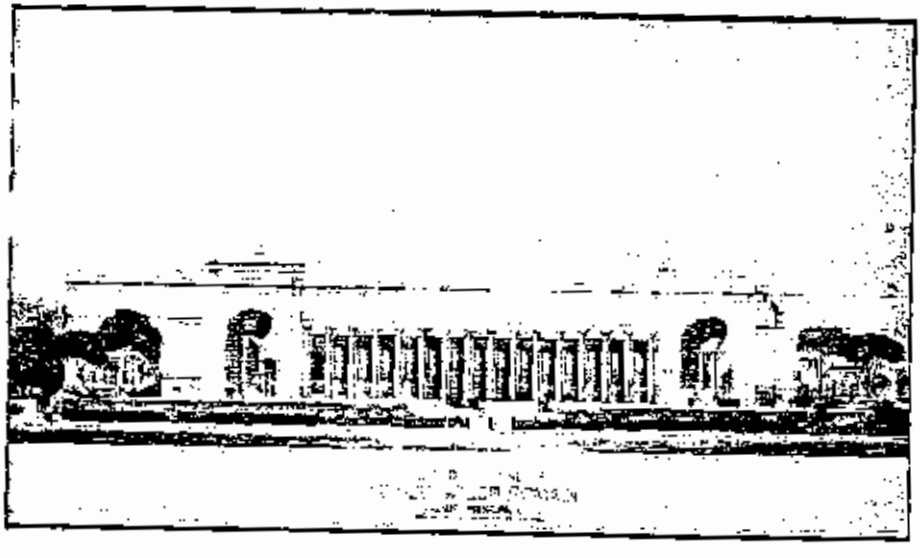

المتحف اليوناني الروماني كما تريد البلدية انشاءه

مقتطف ابريل ١٩٣٤

المثال شارع اسمعيل الذي يراد اختطاطهُ والعناية بنظامه واشكال بنايانه وتجميلها لانهُ سيكون طريق السياح الى قلب المدينة وحتى لا يقع نظر الاجانب الذين يفدون على المدينة الأ على منظر يضاهي على الاقل ما الفوهُ في المدن التي عاشوا فيها . ولهذا المشروع شأن كبير من هذه الناحية فقد مضى عصر طويل على تلك الطرقات التي يخترقها السياح دون ان يطرأ عليها أي تجديد او استحداث وأغلبها ينبو عنهُ النظر لقدمه وقبح طرازه . اذن قد عملت البلدية حقا على سلوك السبيل الى العناية الصادقة بمنظر المدينة وأثرها في نفوس زوارها وحتى لا يكون في دائرة ذلك الانشاء والتجديد نقص يلاحظ عليه . ولقد كان القدماء لا يتخلون عن منشآتهم في سبيل العمران وقصورهم الكبيرة دون ان يحيطوها بقرى واسعة من الحدائق والرياض كأن تلك القرى جزء ملازم للقصور الواسعة كما تلازم الامواج البحر أو كما يلازم بعض الخطوط المنوعة اللوحات الجليلة التي يعنى بها أئمة التصوير فان في تلك الخطوط اثر الابهامة والعبقرية . كذلك قررت البلدية ان تحيط تلك الدوائر الكبيرة للتجديد والعمران في الاسكندرية بشبه حدائق منسقة اختارت ان تغرق فيها تلك المنشآت كما تغرق القصور في الخضرة المنبسطة او كما تطفو السفن الكبيرة في زرقة البحر . فأرادت ان يحتضن ذلك التعمير الجليل وتلك الصور الباهرة للتجديد سياج كبير من الخضرة المونقة والزهر وأفانين التنسيق للاشجار . وكان يقال في تاريخ الاندلس ان الواقد على قرطبه كان يجتاز اكثر من خمسين قرية كلها قصور بيضٌ في حدائق خضر وهو ما تنوي البلدية انشاءهُ عن قريب على مثال «جاردن سيتي» في القاهرة حتى يكمل برنامج التجديد والتأنق في تجميل المدينة . وحسب هذا دليلاً على الذوق المهذب الذي يعنى كل هذه العناية بجمال الاسكندرية العصرية

ولعلنا اذا نسينا فضل هذا التجديد الى الاستاذ احمد بك صديق المدير العام للبلدية فاننا بعد ذلك اعترافاً بالمواهب الكبيرة والصفات التي اجتمعت في هذا المدير والظروف التي كانت موفقة كل التوفيق في تحقيق هذا التجديد لتخليد اسمه الذي سيظل مقروناً بها

***

ولا شك اننا نستطيع منذ الآن ان نتلمس المستقبل الباهر المدخر لهذه المدينة التاريخية من مجموعة تلك الاصلاحات والتجديدات وما لا يزال يشتمل عليهِ برنامج البلدية من مواد الانشاء والتجميل . ولاشك اننا على قدر ما نلحظ مظاهر هذا المستقبل ندرك قيمة التعجيل بتحقيق مواد هذا التجديد وأثره في استحداث عمران مدينة لا تخلو من سحر الشرق القديم الغامض وارجه المسكر الغريب. فقد كانت مهداً لاحلام رقيقة ينميها ذلك التصافح البديع المؤثر بين الشرق والغرب وتمدها الذكريات الخالدة بفيض من المشاعر اللطيفة . وكانت ثانية عواصم الدنيا بعد روما